SS
http://nj180degree.com

عام ١٩١٤ ، أى أنه لم يحضر حتى الحرب العالمية الأولى ، وربما حضرها ومات عند أول طلقة). وقد علمت أنهم أعدموها أو فكوا أجزاءها بعد تلك الرحلة . ركبت بالبداهة فى الدرجة الثانية ، لأنه لم يكن بها درجة ثالثة ، وكانت الأيام تبدو طويلة رتيبة مملة على ظهر السفينة ، وأمامنا خمسة أيام طوال لا ندرى كيف نقضيها . وعلمنى أحد رفاق السفر لعبة « الدومينو » لقتل الوقت .. وهذه الألعاب لا تدخل عقلى ، وكثيرًا ما حاولوا تعليمى لعب « الطاولة » ولم يثمر التعليم ، ولكن سأم السفر الطويل فى بحر لا يتغير أرغمنى على هذه اللعبة ، فلعبتها مع الرفاق حيثما اتفق وهم يضحكون من لعبى ، إلى أن اقتربنا من الشاطئ فنسيتها ولم أعد قط إليها فى حياتى ..

ووصلنا آخر الأمر إلى ما يطلق عليها « مدينة النور » ؛ فماذا شعرت ، أنا القادم المشتاق من بلاد بعيدة مختلفة هى الشرق ، هى مصر الحبيبة ..؟..

ليس سهلا أن أستعيد ذكرى يوم مضى عليه أكثر من نصف قرن .. يوم وطئت قدمى أرض باريس .. لم يبهرنى أول الأمر

SS
http://nj180degree.com

منظر هذه المدينة التى يسحرنا مجرد اسمها .. ما من رواية قرأناها فى الصغر إلا وفيها وصف لأضواء باريس يلهب خيالنا حتى كدنا نتصور بيوتها طوبة من فضة وطوبة من ذهب .. لا شيء من هذا رأيته .. إنما هى بيوت عادية رمادية اللون مائلة السطوح ، والمطر يتساقط رذاذا ، والسماء مكسوة بغمام أبيض ، وهواء بارد لافح لكنه منعش ، بدد فى الحال أثر الأرق فى تلك الليلة التى قضيتها فى القطار ، من ميناء مرسيليا إلى باريس .. ليلة لم أستطع النوم فيها لسبب شاءه سوء حظى ؛ فقد كان معى أشخاص عديدون ازدحم بهم ديوان العربة .. وجاءت جلستى ملاصقة لصبى فى العاشرة إلى جوار أمه .. كان كثير الحركة زائغ البصر دائم الهمهمة .. وأطفأ بعض المسافرين النور الساطع ، وأظلم المكان إلا من نور أزرق خافت ، نام عليه الجميع . وعلا الغطيط .. إلا ذلك الصبى المضطرب بجوارى . ولا حظت أمه ضيقى به ، فأومأت إلىّ بإشارة ثم بهمسة فهمت منها أن هذا الصبى مصاب بلوثة جنون ، وأنها بسبيل إدخاله مصحة أو مستشفى للأمراض العقلية .. فما أن عرفت ذلك حتى وثبت لتوى مذعورًا من ديوان

SS
http://nj180degree.com

العربة إلى الممر الضيق ، وصرت طول ليلى أتمشى أو أسند رأسى إلى نافذة .. وقد رأيت ذلك أسلم لى من البقاء بجانب صبى فاقد العقل ، قد يهيئ له جنونه أن يدخل أصبعه فى عينى أو يقرض بأسنانه أذنى .. وانتظرت زوال الليل بصبر نافد ، ولاح الفجر ، ورأيت لافتات عليها كلمة « باريس » .. فأيقنت بقرب الوصول .. ولم يمض بالفعل قليل حتى دخل القطار محطة باريس ، وأنا شبه مخدر من التعب .. وجاء حمال فحمل حقائبى إلى سيارة أجرة ، طلبت من سائقها أن يذهب بى إلى فندق فى الحى اللاتينى .. وجعلت طول الطريق أتأمل الأشجار الباسقة على جوانب الشوارع شديدة الاخضرار .. اخضرارها يبهر العين عين مثلى على الأقل ، فأنا لم تألف عيناى الاخضرار فى الشوارع .. أشجار تغتسل برذاذ المطر باستمرار .. كأنها حور حسان تحت دش حمام .. إن الطبيعة هنا تحب الشجر كما تحب الأم طفلها .. فهى تواليه بالتنظيف كل صباح . هنا كل شىء نظيف ، والماء يجرى دائما من تحت الأفاريز إلى بالوعات غير مرئية . والجو بدا فى نظرى فضى اللون .. كل شىء من حولى الآن فى لون الفضة

SS
http://nj180degree.com

ولون الزمرد ، إن الطبيعة هى التى تتولى تزيين باريس ..

وأخذتنى إغفاءة فى السيارة لم أفق منها إلا أمام فندق وقفنا ببابه ؛ كان اسمه « فرنسا والشرق » ، وهناك أنزلونى فى حجرة بالطابق الرابع صعدت إليها بسلم ضيق ، لم تكن المصاعد بالكثرة التى نعرفها اليوم . كانت الحجرة صغيرة ، ولكنها نظيفة ، مفارشها بيضاء ناصعة .. لم أعتد مثل هذه المفارش الناصعة شبه المنشاة .. فخجلت أن ألقى بجسمى المترب عليها فجلست فى استحياء على مقعد صغير من الخشب .. ونصحنى مدير الفندق أن أستأجر الحجرة بالشهر لا بالليلة ما دامت إقامتى طويلة ، فإن هذا أوفر لى ، وحسب لى الأجر الشهرى بأربعمائة فرنك أى ما يقرب وقتذاك من أربعة جنيهات ، وهو مبلغ أستطيع دفعه ؛ فإن مقدار ما سيصلنى شهريا من مصر لمعيشتى فى باريس هو عشرة جنيهات . الأمر الوحيد الذى ضايقنى هو عدم وجود حمام بالفندق كله ، وقالت لى خادم الطابق العجوز إن هذا حال أكثر فنادق الحى ، وعلى من يريد الاستحمام أن يذهب إلى حمام السوق . وعجبت أن تستحم هنا الأشجار بدش حمام سماوى ،

SS
http://nj180degree.com

ولا يجد نزلاء الفنادق دش حمام عادى !.. وماذا عساى أصنع للوضوء ؟! إنى معتاد الصلاة .. وقد جئت من بلادى إلى أوروبا والإيمان ملء قلبى ، ومسجد السيدة زينب فى ذاكرتى ، وأنا قابض على دينى كالقابض على الجمر !.. وكيف السبيل إلى التطهر إذن والمرحاض هنا ليس به ماء ؟!.. ورأيت بجوار فراشى قارورة ماء للشرب مغطاة بكوب زجاجى ، فصرت قبل كل صلاة أحمل هذه القارورة معى إلى المرحاض . ولمحتنى الخادم العجوز وأنا أذهب وأجئ فى اليوم مرات عديدة حاملا القارورة ، فسألتنى فى دهشة : « أخبرنى يا سيدى لماذا تحمل الماء دائما هكذا ؟!.. هل تخشى العطش وأنت تسير من حجرتك حتى المرحاض ؟.. إننا هنا لسنا فى الصحراء ؟!..» .

* * *

فى اليوم التالى سرت فى الحى اللاتينى على غير هدى . كان همى الأول أن أتخير مطعما للغذاء .. ولكن المطاعم هنا كثيرة تملأ الشوارع ، وعلى أبوابها بطاقات الطعام والأسعار .. ما هذا الرخص ؟!.. وهذا الخير الكثير ؟!.. هذا مطعم يقدم وجبة غذاء

SS
http://nj180degree.com

كاملة من لحم وخضر وفاكهة وخبز وزجاجة نبيذ أو مياه معدنية بخمسة فرنكات ، أى نحو خمسة قروش مصرية !.. إنى هنا لن أشكو الجوع أبدًا .. لكن الأعجب هو غذاء العقل !.. ها هى ذى مكتبة كبيرة قد عرضت فوق الإفريز مجموعات من المجلدات القديمة التى أعرف قيمتها بأزهد الأثمان . كل مجلد منها بفرنك ونصف الفرنك ، وأحيانا ثلاثة فرنكات لمجموعة كاملة من مسرحيات : موليير ، وراسين ، وفولتير .. ولكنى قبل كل شىء أحتاج هنا إلى قاموس لغوى ودائرة معارف . واقتنيت من هذه المكتبة معجم لاروس الكبير فى جزأين ضخمين بما لا يزيد عن مائة فرنك . وهو ثمن زهيد لهذه الجامعة المتنقلة تحت ذراعى .. وكان هذا أهم شىء صنعته فى يومى .. وفى طريق عودتى إلى فندق لمحت فى حانوت للحلوى صندوقا كبيرًا من البسكوت الفاخر المحشو بالزبد والمربى ، فوقه بطاقة بسعر أذهلنى رخصه ، فمثل هذا البسكوت ما كان يخطر لى فى مصر أن أقدم على شرائه .. دخلت الحانوت وخرجت بالصندوق ، وفى حجرتى وكانت لها شرفة تطل على الشارع ، جلست واضعا الصندوق فى حجرى ،

SS
http://nj180degree.com

و لم أفطن إلى نفسى إلا وقد أتيت على كل ما فيه من هذا البسكوت اللذيذ ، وأنظارى لاهية إلى استطلاع ما فى الشارع من حركة وما حولى من منازل .. واستلفت نظرى مبنى فى مواجهتى له مهابة ، فسألت عنه الخادم فقالت إنه « الكوليج دى فرانس » و لم تزد .. و لم أفهم منها المقصود . فلجأت إلى جامعتى المتنقلة « معجم لاروس » وكشفت عن « كوليج » فعثرت على ضالتى فى هذه السطور : « كوليج دى فرانس معهد أسسه فى باريس فرانسوا الأول عام ١٥٣٠ ميلادية ، خارج نطاق الجامعة ، شيده بناء على مشورة جيوم بوديه . والدراسة فى هذا المعهد تشغل كل مجالات المعرفة الإنسانية، والمحاضرات داخل هذا المعهد مفتوحة للجميع، ولا يعقد فيه أى امتحان، فهى دراسات تكميلية تطلب لذاتها ولكل طالب ثقافة .. » فالثقافة هنا فاتحة أبوابها بالمجان أو بأقل القليل من المال .. لم أكن أعرف شيئا عن جيوم بوديه هذا الذى أشار بإنشاء مثل هذا المعهد ؟.. من هو ؟ وما صناعته ؟.. ورجعت فى الحال إلى جامعتى « معجم لاروس » وبحثت عن الاسم وعلمت أنه « فيلسوف فرنسى

SS
http://nj180degree.com

(١٤٦٧ — ١٥٤٠) وواحد من أوائل المتخصصين فى عصره فى الثقافة الإغريقية . وقد توسل بما له من حظوة لدى الملك فرانسوا الأول لإقناعه بإنشاء معهد « الكوليج دى فرانس » .. وغرقت فى التفكير .. ياللعجب !.. بل ياللرقى !.. رقى النفس والعقل .. أن يطلب الإنسان المعرفة لذاتها .. للسمو بها .. لا بغية نجاح فى امتحان أو حصول على شهادة أو وصول إلى وظيفة !.. وربما كان لدينا نحن أيضًا شيء كهذا فى يوم من الأيام .. بل ربما كان هذا مستوحى من أقدم جامعة فى العالم وهى « الأزهر » .. يخيل إلىّ أن الأزهر أيضًا فى أوج ازدهاره كان مفتوحًا هو الآخر لكل ألوان المعرفة فى عصره ، لكل من يطلبها لذاتها ، لا ابتغاء منفعة عاجلة من شهادة امتحان للارتزاق والامتهان . إن الشيخ الأستاذ وحوله الطلاب ما كان يجمعهم ويربطهم غير حب العلم وحده .. ما كان هناك جبر ولا إلزام .. من حضر حضر ، ومن غاب غاب ، والأستاذ فى مكانه يفرز علمه كما يفعل النحل الدؤوب دون نظر إلى من يتلقى العسل . ويكفى عقل واحد يواظب وينتفع ويتلقى عنه مشعل المعرفة ليبقى دائم التوقد متصل

SS
http://nj180degree.com

الإشعاع .. أين ذهب هذا « الأزهر » الآن ؟ أما شبيهه فى باريس وهو : « الكوليج دى فرانس » فباق على الدوام!...

لم أكن بعد مهيأ من حيث اللغة والثقافة لأفهم وأنتفع بمحاضرات مثل هذا المعهد الحر .. كان يجب أن أقرأ وأن أغرق طويلا فى شتى الكتب أولا .. وها هنا الكتب زهيدة الثمن ، وصرت بالفعل أبدأ أول ما أبدأ عند نزولى إلى الشوارع بالمرور على المكتبات أغرف منها وأحمل إلى حجرتى .. إلى أن خطر لى الذهاب إلى حى مونمارتر .. هذا الاسم الذى طالما سمعت به من قبل ، مقترنًا بأسماء الفنانين البوهيميين والأوباش وأهل الفجور .. أما الأوباش وأهل الفجور فحاشا لله ، فأنا ولله الحمد مازلت محتفظًا بروحى الدينى .. وأما الفن فهذا هو الذى يهمنى ، إنى أريد أنا أيضا أن أكون هنا فنانا بوهيميا ، وقد كنت كذلك فى مصر قبل مجيئى يوم كنت أتسكع مع ملحن روايتى كامل الخلعى وأصدقائه المتصعلكين فى شارع محمد على وحى القلعة .. لماذا لا أذهب إذن إلى مونمارتر وأعيش هناك ؟!.. ونهضت ذات صباح وحزمت أمتعتى وركبت سيارة أجرة وقلت للسائق : إلى مونمارتر .. وفى

SS
http://nj180degree.com

مداخلها أبصرت لافتة عليها كلمة فندق ، فبادرت أطلب من السائق الوقوف ، ودخلت بأمتعتى توا إلى الفندق ، فاستقبلنى مديره ومساعده ، فلم أضيع وقتا وقلت لهما على الفور « أريد حجرة بالشهر ، لأن إقامتى عندكم مستديمة » .. فضحك الرجلان ضحكا أثار دهشتى ، ولما بدا لهما أنى لم أفهم ، أشارا إلى سلم الفندق فأبصرت رجلا وامرأة يصعدان ورجلا وامرأة يهبطان .. ولم يظهر علىّ مع ذلك علامات الفهم ، وعندئذ طلب منى المدير ومساعده أن أقرأ رقعة معلقة بالحائط قرب الباب تفيد أن الحجرات فى هذا الفندق تستأجر بالساعة .. عندئذ فقط أدركت أنى وقعت فى فندق مشبوه للمواعيد الغرامية ، لا للإقامة الدائمة العادية . فانصرفت خجلا وأنا أتعثر فى أمتعتى ، والرجلان يضحكان منى ويسخران ويرددان : « بالشهر !.. يقول بالشهر !» ..

وعدت أدراجى إلى قواعدى بفندق « فرنسا الشرق » فى الحى اللاتينى فهو حى على الأقل أعرفه .. وأعرف فيه موضع قدمى .. ومرت الأيام وأنا أزداد به ألفة ، واتخذت لى فيه مقهى

SS
http://nj180degree.com

حعلته مكانى المختار ، كان على ناصية الشارع الذى به جامعة السوربون ، اسم هذا المقهى « دراكور ». لم يعد له وجـود الآن ، ولكنه فى ذلك العهد كان له شأن ، وكان يؤمه القادمون الغرباء مثل الشاعر أحمد شوقى عندما كان يزور باريس فى الصيف ويجالسنا .. وقد أخبرنى فى عام ١٩٢٦ أنه يعد مسرحية عن كليوباترا . وطلب منى إخباره بالمسرحيات الفرنسية عن كليوباترا وأخبرنى أنه شاهد مسرحية لى تمثل فى عام ١٩٢٤ فى فرقة عكاشة التى يرعاها طلعت حرب .. كما أنى فى هذا المقهى عرفت صديقًا من أصدقاء العمر ، فريد الشخصية ، عجيب الأطوار .. لم ينقطع اتصالنا طوال الأعوام إلا بانتقاله إلى رحمة الله ؛ اسمه : « الدكتور سعيد » .. كان قد جاء من مصر ، لا للدراسة فى جامعة ، ولكن للتمرين العملى على الأبحاث البكتريولوجية فى معهد باستور .. حكيت له ما حدث لى فى مونمارتر ، فضحك هو الآخر وسألنى عمن يخدمنى فى فندقى ، فلما قلت له إنها خادم عجوز ، صاح مشمئزًا : « أعوذ بالله !. فى باريس وتخدمك عجوز ؟!.. قم يا شيخ واترك فى الحال هذا

SS
http://nj180degree.com

الفندق !» ونصحنى بالانتقال إلى فندقه . ولما سألته عمن يخدمه هناك قال : « رجل عجوز ... » فصحت بدورى : « أعوذ بالله !» فابتسم وقال « انتظر .. اصبر ولا تقاطعنى .. إنه فعلا رجل عجوز ولكنه كنز من الكنوز ! ». وروى لى حكايته مع هذا الرجل .. قال : إنه نزل هذا الفندق ليلا ، وفى الصباح استقيظ ودق الجرس طالبًا الفطور ، وهو يمنى النفس بخادمة حسناء تدخل عليه ، فلما دخل عليه هذا الرجل العجوز بشواربه صاح : « إخص على هذا الصباح الهباب ، رجل بشوارب أصطبح بوجهه فى باريس ! » وقام من فوره يحزم أمتعته ويترك الفندق .. وفهم الرجل وابتسم ، وأخبره أن الطابق الأعلى تخدم فيه خادم حسناء اسمها « جانيت » ، والطابق الأسفل حسناء اسمها « زيزيت » فزاده هذا نكدًا وقال : « وما الذى أوقعنى أنا فى هذا الطابق الملعون ، الذى يخدم فيه رجل بشوارب اسمه .. » وسأله عن اسمه ، فأجابه « غليوم ». فقال له : « انقل أمتعتى فى الحال يا غليوم إلى فوق أو إلى تحت !.. » فقال الرجل بابتسامة ماكرة : « لا داعى إلى انتقالك يا سيدى ؛ أليس عندك زرار

SS
http://nj180degree.com

مخلوع فى قميصك لأرسل إليك جانيت بالإبرة والخيط كى تصلحه لك !، وهذه البقعة فى سترتك لا بد أن تحدث إن لم تكن حدثت من أثر سقوط ملعقة مربة أو زبدة أو نحو ذلك ، ولا بد إذن من أن أرسل إليك زيزيت لتنظفها لك .. ما رأيك فى كل هـذا ؟!.. فانفرجت أسارير الدكتور سعيد وقال : « هذا كلام معقول !.. ووضع فى كفه خمسة فرنكات ضاعفت من همته ، فقال : إن بالطابق الأخير حسناء ثالثة اسمها : « أنطوانيت » سيأتى دورها . وفعلا طلب صديقى وقد ادعى المرض من يدلك له جسمه ، فقال له غليوم : إن هذا شغل أنطوانيت ، وأسرع يناديها .. وهكذا أصبح غليوم هذا لصديقى كنزًا من الكنوز ..

إلا أن صديقى الطموح لم يكتف بهذا ، بل طمع ذات يوم فى المديرة نفسها ، تلك التى تجلس فى صدر بهو الفندق بزهـو وكبرياء ! وكانت امرأة ناضجة مليحة ، وفاتح كنزه الثـمين غليوم فى أمرها ، فصاح فزعًا : « لا يا سيدى إلا هذه !.. » فنفحه بسخاء ، وصديقى هذا كان يتقاضى مرتبًا مجزيًا باعتباره طبيبًا مبعوثًا من الدولة ، فنشط غليوم بفعل المنحة السخية واتقد

SS
http://nj180degree.com

ذكاؤه وتفتق فكره ، فبادر إلى ستارة النافذة الوحيدة فى الحجرة فجذبها جذبًا فانخلعت .. وقال : « سأنزل إلى المديرة وأخبرها أن ستارة نافذتك مخلوعة وعليها أن تأتى لمعاينتها والأمر بإصلاحها، فإذا دخلت حجرتك فعليك أنت بالباقى » .. وسألت صديقى الدكتور سعيد عما حدث بعدئذ ، فرفض أن يخبرنى واكتفى بأن قال لى: «فيما بعد أخبرك .. أما الآن الأهم هو أن تأتى حالاً إلى هذا الفندق لننعم معًا بفضائل هذا الكنز المدعو « غليوم » !.

و لم أبطئ بالطبع .. فلم تمض ساعة أو أقل حتى كنت أحمل أمتعتى إلى هذا الفندق البهيج . وما كدت أدخل البهو حتى استقبلنى الصديق باسمًا قائلا : « اختر لك ما يحلو .. تسكن طابق جانيت أو طابق زيزيت أو طابق أنطوانيت ! » فقلت له : « بل طابق غليوم وهو يوزع علينا الخيرات ، تحت إشرافك طبعًا ، وقد تركت لكرمك وسخائك مهمة المنح والعطاء باسمى واسمك !.. » فقال : « أمرك !.. » ونادى غليوم وأمره بحمل أمتعتى إلى حجرة بطابقه . وصعدت لأنظم شأنى فى مسكنى الجديد ، على أن ألحق بصديقى بعد قليل فى مقهى داركور .

SS
http://nj180degree.com

وما أن استقر بى المقام فى حجرتى حتى نهضت أفتح حقائبى وأخرج ملابسى ثم موسى الحلاقة وأحلق ذقنى أمام مرآة فوق مائدة عليها طست واسع من الخزف الملون وأبريق ماء كبير لغسل الوجه . فمثل هذه الفنادق لم يكن بها فى ذلك العهد من أوائل العشرينات حنفيات الماء الجارى فى الحجرات كما هو العهد الآن .. وما أن انتهيت من حلاقة ذقنى وأعجبنى شكلى حتى بادرت إلى زرار قميصى فخلعته ، ثم ناديت غليوم وأشرت له إلى القميص قائلا « الزرار انخلع ! » .. فقال : « لحظة واحدة يا سيدى » .. وانصرف سريعًا وتركنى أمنى النفس برؤية جانيت أو زيزيت أو أنطوانيت .. وعاد غليوم فعلا بعد لحظة ولكن بمفرده ، وفى يده إبرة وخيط . فصحت به : « ما هذا ؟ » فقال متعابطا : « ألم تطلب ذلك ؟! » قلت له : « بل طلبت جانيت أو زيزيت !.. » فابتسم . لكنه عاد فتجهم وهرش رأسه الأصلع قائلا : « هو صديقك قال لك ؟! » فأجبته « طبعًا » فعاد إلى هرش رأسه بلكاعة ، وفهمت مراده وأسرعت إلى محفظتى وأخرجت منها خمسة فرنكات وضعتها فى كفه ، فتهلل

SS
http://nj180degree.com

وجهه ، ودب فيه حماس مفاجئ ، وقال : « شكرًا يا سيدى لحظة واحدة ! » وخرج مسرعا .. وجلست أنا على مقعد أنتظر وكل أنظارى إلى باب الحجرة .. وتذكرت المحفظة فى يدى ففتحتها ونظرت فيها ثم أعدتها إلى جيبى مغتما وقد ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، وجعلت أقول لنفسى : لعنة الله على العجلة واللهفة ، أما كان الأجدر انتظار صديقى سعيد ليتولى هذه الأمور ؟! » ..

* * *

لم يكن هذا اللهو والعبث ليصرفنا على النظر إلى الوجه الآخر لباريس ، وجه العلم والمعرفة والحضارة . ويبدو أن هذه الدفعة كلها التى ارتادت أوربا عقب الحرب العالمية الأولى وأوائل العشرينات كانت امتدادًا لبعثة رفاعه الطهطاوى تدرك بالغريزة ، دون تدبير أو تفكير أو تخطيط مسبق ، أنها هى المنوط بها وضع أسس نهضة فكرية وعلمية سوف يقوم عليها البناء الحضارى لبلادنا فى ثلاثين أو خمسين سنة قادمة . وكان صديقى الدكتور سعيد من بين هؤلاء الرواد فى فرعه الذى تخصص فيه .. وكان

SS
http://nj180degree.com

برغم عبثه هذا مجدًا فى عمله وأبحاثه ، محترمًا بين زملائه من علماء المعهد ، إلى حد أنهم أرادوا ضمه إليهم بمرتب فى المعهد ، ولكنه رفض الانسلاخ من بعثته والابتعاد عن خدمة بلاده .. وعلى الرغم من التحرر الفكرى الذى كان يحيط به والتعمق العلمى الذى كان يزاوله فإن إيمانه الدينى كان راسخًا لا يمكن زعزعته مثل ، الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان شديد الإعجاب بباريس مع شدة رسوخ فى الدين . وهى سمة بارزة فى مفكرى ذلك العصر .. وقد كنت أنا منهم فى أول الأمر ، لم يكن الانغماس فى بيئة أهل الفن فى مصر بمؤثر فى العقيدة ، على العكس ، إن الفنان دائمًا أقرب إلى الإيمان . إن حصولى على ليسانس الحقوق وتسجيل اسمى فى جدول المحامين واشتغالى بالمحاماة فى ذلك العهد إلى جانب تأليف الروايات كان كفيلا بأن يجنبنى كما جنب غيرى متاعب القلق الفكرى . ولكنى قطعت هذا الاتجاه الذى بدأت السير فيه بنفس مطمئنة لأحضر إلى بلاد تضطرب فيها الأفكار ويسودها القلق فى أعقاب حرب شملت العالم كله لأول مرة فى تاريخ البشر . كان من برنامجى أن أحضر

SS
http://nj180degree.com

لدكتوراه الحقوق إلى جانب متابعتى لهوايتى الفنية . وقد اخترت القانون العام ، وهو أقرب إلى الدراسات الإنسانية التى تهمنى لا تصالها بالفن ، وهى تشمل الاقتصاد السياسى والتشريع الصناعى وتاريخ المذاهب الاقتصادية من أرسطو حتى كارل ماركس . وقد جرنى أرسطو إلى دراسة الفلسفة اليونانية ، وكارل ماركس إلى هيجل والفلسفة الألمانية ، وكان التركيز فى ذلك الوقت على ماركس بالذات للحدث العظيم الذى شغل أوروبا وقتئذ ؛ وهو ثورة روسيا واهتمام مفكرى العالم بهذه التجربة الإنسانية الحية وما تحمل فى طياتها من آمال .. وكان أملنا فى مصر يومئذ هو الخلاص من الاحتلال الإنجليزى .. فكان كل نشاط فكرى أو فنى أو سياسى أو اجتماعى يقوم على أمل التحرر من نير احتلال بريطانيا العظمى لبلادنا .. فكان من بين ما استهوانى فى ماركس وقوفه ضد الإمبريالية ..

على أن قراءاتى الخاصة كانت أشمل ، والنهم إليها متجدد ، لأن المعرفة أمامى فى باريس ملقاة فى الشوارع . وكلما تسكعت فى طرقاتها قادتنى قدمى إلى مكتبة تلقى بكتبها على الأفاريز . وعلى

SS
http://nj180degree.com

إفريز شارع « سوفلر » وجدت فى مكتبة اسمها « دلاجراف » كتابًا زهيد الثمن فى تاريخ الفلسفة « قضاياها ومذاهبها » فى أكثر من ألف صفحة تأليف بول جانيه وجبريل سياى الأستاذين بجامعة باريس . إنها الطبعة الحادية عشرة الصادرة حديثًا فى عام ١٩٢٠ دفعت فيها عشرة فرنكات فقط ، أى ما يساوى عشرة قروش مصرية !.. وعدت بها إلى حجرتى .. بمثل هذا الكتاب فى حوزتى استطعت أن أكون فكرة شاملة عن مجرى التفكير البشرى .. ولكن الأفاريز لا تكف عن عرض الكتب فى مجرى لا ينقطع سيله ، سيل ماء المطر الجارى من تحتها . هذا هو فولتير وروسو وكل أعلام عصر التنوير بفرنكات معدودات . ولكن الذى حدث فى عقلى كان شيئًا مخيفًا ؛ لكأنى فتحت نافذة فى رأسى هب منها إعصار هائل قلب كل شىء .. وذهبت إلى صديقى الدكتور سعيد أفاجئه بقولى : « أجبنى حالاً هل تؤمن حقًا بالجنة والنار ؟! » فحملق فى وجهى كمن ظن أنى شربت وأكثرت من الشراب ! ولكنى لم أكن قد ذقت الشراب بعد ، لا أنا ولا هو ، وقد ظل هو إلى آخر يوم فى حياته لم يذق الخمر . ولما كررت عليه

SS
http://nj180degree.com

السؤال اكتفى بأن قال لى : « هل حصل فى عقلك شىء ؟! » فقلت له بلهجة الجزم : « حصل كتير !.. » وألححت فى السؤال ، وأصر هو على الصمت وعندما أفهمته أننا فى مرحلة يجب أن نطرح فيها كل شىء على العقل ليطمئن منا القلب ، رفض الخوض فى مثل هذه الموضوعات .

ولكنى كنت فى بيئة تفكير ، ولأول مرة أشعر بشىء خطير حدث فى حياتى ، هذا الانتقال السريع من عصر إلى عصر : كنت كسمكة النيل الهادئ خرجت فجأة إلى موج البحر المتلاطم ، خرجنا من جو فكرى راكد إلى جو تبرق فيه الأفكار وترعد ، وتتخذ فيه العقول صورة الخيول ، تركض ركضا فى كل حلبة من حلبات النشاط الإنسانى ، كل حاجز تتخطاه ، وكل عقبة تقفز من فوقها ، والركود عندها هو الموت .. إذن كنا أمواتًا ونحن لا نشعر ، وأحسست بالعقل يتحرك ، كالهر حديث العهد بالجرى ، فرح بحركة سيقانه يشب عليها ويحاول الجرى مع الخيول .. ولكن صديقى الدكتور سعيد يريد أن يضع أمامى حاجزًا لا ينبغى أن أتعداه : هذه الموضوعات التى لا ينبغى المناقشة

SS
http://nj180degree.com

فيها . وعندما قلت له : « وما الضرر ما دمنا مؤمنين ؟ فلنناقش كل شيء بحرية ما دام الأمر سيؤدى بنا فى النهاية إلى الإيمان » . فلم يرُق له كلامى .. وقال بحسم : « نتناقش ؟! اسكت بلاش كفر !! » وأراد أن يغير الموضوع بسرعة ..

حقا إن الإيمان مريح ، ولكن من شيمة العقل أن لا يستريح .

ولكى يضع سعيد حدًا لما سماه تخريفى أخذ يغرينى بالذهاب معه إلى مكان اكتشفه يطلع فيه القمر بدرًا متألقا فى وقت الظهيرة .. وقادنى من يدى إلى مطعم فى آخر الحى ، دخلناه وجلسنا إلى مائدة من موائده اختارها بعناية .. كانت بالقرب منا فتحة فى الحائط كالطاقة أو الكوة أو النافذة الصغيرة تؤدى إلى المطبخ ، وتخرج منها أطباق الطعام . ونبهنى صديقى إلى هذه الكوة لأن منها سيظهر البدر المكتمل بين لحظة وأخرى .. وفعلا لم تمض لحظة حتى ظهر فى الكوة وجه حسناء كأنه البدر ضياء .. إنها الطباخة الجميلة بقبعتها العالية البيضاء .. الحق أننا لم نستطع أن نحول أنظارنا عنها طول الوقت . كان هذا المطعم متخصصًا فى الأطعمة الفرنسية القديمة ذات الأسماء الغريبة فلم نفهم منها شيئًا

SS
http://nj180degree.com

غير كلمة « كوستليته بالبطاطس » : فصرنا نحضر كل يوم ونجلس إلى نفس المائدة ، ونرصد طلوع القمر من خلف الكوة ، ونطلب الصنف الوحيد الذى لا نعرف غيره وهو الكوستليته بالبطاطس وأنظارنا مسددة إلى الكوة ، وعيوننا معلقة بأشعة البدر المنير . وتكرر هذا كل يوم : نفس صنف الأكل ونفس التطلع إلى البدر ، إلى أن كان يوم سبقت فيه صديقى سعيد إلى دخول المطعم وتخلف هو ليشترى علبة سجاير ، وجلست وَحدى إلى المائدة المعتادة أنتظره ، وأتطلع إلى بدرنا فى الكوة . وإذا بصاحبة المطعم وكانت امرأة مسنة بدينة ضخمة قوية تجلس دائمًا أمام الخزانة على مقربة منا تلاحظنا من طرف خفى فيما يظهر ، وترقب أحوالنا دون أن نشعر ، قد نهضت من مكانها وقصدتنى قصدًا وأمسكت بذراعى وأرادت أن تجرنى إلى المطبخ .. وأنا أقاوم وأتشبث بكل ما تقع عليه يدى ، وهى مصرة على جذبى وشدى مرددة كلمة « تعال .. تعال » وجاء صديقى سعيد ورآنى على هذا الحال .. وما كدت أنا أراه حتى صحت به مستنجدا قائلا باللغة العربية : « الحقنى يا أخى .. هذه الولية

SS
http://nj180degree.com

صاحبة المطعم ضبطتنا متلبسين بمغازلة الطباخة وتريد جرى إلى المطبخ للتحقيق ! » فاستشاط الدكتور سعيد غضبًا ، وهجم على المرأة الضخمة وخلصنى منها وقال لها بلهجة عنيفة : « ما هذه السخافة ؟. ماذا فعلنا ؟ هل نحن قبلناها أو حضناها ؟!. لا قبلة ولا حضن .. مجرد مغازلة بريئة من بعيد لبعيد !.. » ولم يبد على المرأة أنها فهمت شيئًا ، فقد ظهر على وجهها الدهشة والاستغراب ثم جعلت توضح موقفها قائلة إنها لاحظت أننا لا نطلب كل يوم غير صنف واحد بعينه هو الكوستليته بالبطاطس ، فأدركت ، ونحن غرباء كما يبدو من هيئتنا ، أننا لا نعرف ما فى المطعم من أصناف أخرى قد تروق لنا إذا شاهدناها . وأخذتها الرأفة بنا فأرادت أن تدخلنى المطبخ لأرى بنفسى ما فى الأوانى والحلل والصوانى من أطايب الأصناف والألوان وأنتقى منها ما يحلو لنا .. وهذا كل ما فى الأمر . وهى لا تدرى لماذا نرفض ونقاوم ونغضب ؟!.. فضحكنا ، وأفهمناها أننا كنا نظن المسألة لها صلة بمغازلة الطباخة الحسناء . فضحكت بدورها وقالت إنهم فى باريس لا يقيمون وزنا لذلك ، وإنه يسرها أن يكون فى محلها

SS
http://nj180degree.com

صامتين ، لا أدرى ماذا أقول .. إلى أن سألتها آخر الأمر عن أمتعتها ، فقالت لى إنها مودعة عند صديقة لها متزوجة ، أضافتها الليالى السابقة ، و لم يعد من اللائق أن تفرض ضيافتها على أسرة أكثر من ذلك .. و كانت تلك الأسرة تقطن ضواحى « باريس » والوقت ليل ، فرأينا أن نرجئ طلب الأمتعة إلى الصباح ، وذهبت بالغادة الحزينة إلى أحد المطاعم فتعشينا ، وأنا أحاول إضحاكها والتسرية عنها ، ثم قدتها إلى مسرح تعرض فيه رواية « فودفيل » مفرحة ، فانتعشت قليلا ، وضحكت مع الضاحكين ، وخرجنا وقد أنست إلىّ بعض الشىء ، وبدأت تتوطد بيننا الألفة .. وذهبت بها إلى حجرتى بشارع « بلبور » فسرت كثيرًا بالمطبخ الصغير الملحق بالحجرة ، وما فيه من أدوات لشىّ اللحم وجهاز لموقد يشعل بالغاز ، وسألتنى أن أعيرها تلك الليلة « بيجاما » مما أرتديه للنوم . ففعلت ، وتشاغلت بالنظر فى كتبى المكدسة فوق المكتب ، ولك أن تصدق أيها الخبيث « أندريه » أو لاتصدق ، فو الله لم أحاول اختلاس النظر إليها وهى تخلع ثيابها ، ولا أذكر أين فعلت ذلك .. هل خلف خزانة

SS
http://nj180degree.com

الثياب أو فى المطبخ ، وكل ما أذكر أنها طلعت علىّ فجأة وهى مرتدية « البيجاما » ويكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء ، فوقع الكتاب من يدى ، فابتسمت .. ابتسمت « أفروديت » ، وكانت ليلة لا تنسى .. وبزغ الصبح ، وفتحت عينى وقد راحت السكرة ، وجاءت الفكرة .. ونظرت إلى تلك المرأة النائمة فى فراشى وقلت لنفسى : ماذا أنا صانع بها .. اليوم الأحد ، وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر .. هل أصحبها ؟.. إنها لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست أو سبع ساعات ، كما أفعل ، وإذا احتملت فإنها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحده ؛ كما أصنع ، وإذا فعلت فإنها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التى تبدد جو تأملاتى ، وتفسد علىّ نظام تفكيرى .. ثم إنها ستغير برنامج حياتى !.. إنى الآن آكل وأعمل وقتما أريد وحيثما أريد ، إن حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بإنسان ستصبح منذ اليوم داخل إطار محدود من صنع هذه المرأة . إنها عبء وتبعة ، إنى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى !.. » ونهضت من فراشى على عجل ،

SS
http://nj180degree.com

ارتديت ثيابى ؛ وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها : « إنى رجل بوهيمى ، لا يصلح لرعايتك ، والسهر على راحتك ؛ فأرجو أن تخلينى من تبعة إسعادك !.. فإنى لست لهذه النعمة بأهل .. » وألقيت عليها نظرة أخيرة وهى فى نومها العميق المطمئن وانصرفت . ذهبت توًا إلى مسيو هاب ، وأخبرته بما حدث فكاد يصعق ، فهدَّأت من روعه وضاحكته قائلا : « لا تنس أنى رجل شرق متوحش !.. المرأة عندى يجب أن تظل فى الحريم أو على الأقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى . إذا أرادت « ساشا » أن تتخذ من مسكنى مأوى لها ، فلا مانع لدى .. على شرط أن تتركنى حرًا .. فلا تخرج معى .. ولا تشعرنى بأن لها فى حياتى وجودًا !..

ففهم « هاب » مرادى ، وقال : لا بأس !.. أظنها ترضى بهذا الشرط .. ولكن نفقات طعامها ؟.. فقلت له : « فى مقدورى أن أعطيها كل يوم ثمانية فرنكات أو تسعة[1] » فقال « هاب » : « لغذائها وعشائها معًا !.. » قلت « نعم »،فقال :

---

(١) أى ما يعادل وقتئذ ثمانية قروش مصرية .

SS
http://nj180degree.com

« اجعلها عشرة فرنكات »!... فقبلت ، وتعهد هو بأن يلقاها فى ذلك اليوم ؛ ليعرض عليها هذا الوضع الجديد ، وانصرفت أنا إلى « متحف اللوفر » ، فغرقت طول يومى فى قاعة الفن الإغريقى متنقلا بين تماثيل « بالاس » و « أبولون » و « فينوس » فى أوضاعها المختلفة ، آه يا « أندريه » .. إن فن الإغريق هو تجميل الطبيعة إلى حد إشعارها بنقصها .. لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : انظرى كان ينبغى أن تصنعى هكذا !..

ومضى أكثر النهار ، فدلفت إلى قاعة الفن المصرى القديم .. ولا يفصل بينها وبين قاعة الإغريق — كما تعلم — غير باب صغير ؛ وما كدت أتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب .. إنه عالم آخر. إن فن مصر القديمة هو تحدٍ صارخ للطبيعة ؛ لكأنهم يقولون للطبيعة : « انظرى .. لا شأن لنا بك .. ولا بمخلوقاتك .. إننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال .. على أن الذى استلفت نظرى فى هذا الفن ، هو أن أسلوبه قد أوحى إلىّ أسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر إلى حدٍ كبير .. وخرجت من

SS
http://nj180degree.com

« اللوفر » وأنا أقلب فى رأسى الملاحظات والمقارنات .. وذهبت إلى مطعم صغير أتناول عشائى .. ثم عدت إلى مسكنى فوجدت المسكينة « ساشا » قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب :

« سيدى !.. إنك لا تريدنى ، ولكنى أبحث عبثًا ، وأستعرض فى ذاكرتى كل ما حدث أمس ، والمساء والليل ؛ علّنى أجد اللحظة التى أكون فيها قد خيبت ظنك فيها ، وليس فى مقدورى سؤالك أو الاستفسار منك ؛ فلقد ذهبت تاركا لى تلك الكلمة التى تدعونى فيها — على نحو ظاهر — إلى الرحيل !.. إذن .. فلم يبق لى إلا أن أسير فى طريقى .. أود على كل حال لو حدثتك مرة أخرى !.. فإذا لم تر بأسًا فى ذلك فإنى أرجو منك أن تبعث إلىّ كلمة بعنوان صديقتى المسطور فى أعلى خطابى .. »

فى الحق يا « أندريه » أنى تألمت وندمت ؛ لقد كان تصرفى خاليًا من الرفق والرحمة ، ولبثت أفكر وأنا أجيل النظر فى حجرتى الخالية .. إن وجود هذه المرأة ها هنا ليس عبثًا بالقدْر الذى تصورته .. إنها كانت تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى ، فتغير قليلا من هذا الجو المغبر بتراب الكتب .. ما أجملها عندما

SS
http://nj180degree.com

كانت مرتدية ثوب النوم الذى أعرتها إياه البارحة !!.. ليتها تعود . ما أوحش الليل بدون امرأة !.. وقضيت ليلة مضطربة ، وفى اليوم التالى ذهبت إليها فى مسكن صديقتها .. وحملتها هى وأمتعتها فى سيارة ، وعدت بها إلى حجرتى بشارع « بلبور » . وأخبرتنى فى الطريق أنها التقت بمسيو « هاب » فى اليوم السابق وأنه أخبرها بالشرط والنظام الجديد ، فعاهدته على القيام بتنفيذه على أدق وجه !... وهكذا استقر بنا الحال أيامًا . وكان لحجرتى مفتاحان استبقيت واحدًا وأعطيتها الآخر ؛ فإذا كان الصباح تركت لها فوق مكتبى الفرنكات العشرة ، ثم انطلقت حرًا طول يومى ، فلا أرى لها وجهًا إلا ليلا .. هنالك أحيانا يحلو لى أن ألزم حجرتى ، لأكتب الساعات الطوال .. فما كانت تنبس بحرف ، بل كانت تقرأ ، تقرأ كل ما يقع تحت يدها من كتبى المكدسة .. لقد عجبت أول الأمر لكثرة مطالعاتها ولإجادتها لغات .. إلى أن قصت علىّ نشأتها .. وعلمت أنها ابنة مدير إحدى شركات السكك الحديدية فى ألمانيا .. فلما انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار « المارك » والنظام الاقتصادى الألمانى ؛ — انهارت أسرتها

SS
http://nj180degree.com

أيضًا : فمات أبوها ، وتشرد إخوتها وأخواتها فى أرجاء أوروبا !..

نزحت هى إلى « فرنسا » حيث وجدت ذلك العمل الذى شغلته فى وكالة السفر ، حتى فقدته هو الآخر جريا وراء قلبها !.. إنها بوهيمية من الطراز الأول !.. على أنها لم تفهمنى أيضًا كما كان ينبغى ، فإنه لم يمض على نظامنا هذا عشرة أيام ، حتى نسيت مراميه ، وأغراضه وإذا هى تترك لى فوق مكتبى هذه الكلمة :

« عزيزى !.. إنك تتغيب طويلا .. لكأنك تتعمد الهرب من حجرتك ، ومن وجودى ، على الرغم من الجهد الذى أبذله حتى لا أضايقك أو أثقل عليك !.. وحدتك هذه تكاد تشعرنى بأنها مظهر استياء منى .. وإنى لأبحث عبثًا عن السبب يا صديقى العزيز .. إنى لأرجوك من كل قلبى أن تخبرنى عما لايعجبك منى !.. قلها بصراحة .. فربما كان فى الإمكان رتق رباط الثقة والاطمئنان الذى يصل أحدنا بالآخر .. هذه الثقة ، والاطمئنان الذى تخلو منه نفسى فى هذه اللحظة ؛ — ربما كنت مخطئة فى هذه التقديرات !.. ربما كنت مسرفة فى الوهم ، فأخذت شغلك

SS
http://nj180degree.com

بعملك على أنه شغل عنى !.. مهما يكن من أمر فطمئنى بكلمة ؟.. إنى حزينة جدًا .. إنى خارجة أستنشق بعض الهواء ، وأرفه عن نفسى قليلا .. ولكنى أرجو أن تكون على ثقة من أن إخلاصى هو لك وباق لديك .. »

الواقع يا « أندريه » أنى عجبت لهذا الخطاب !.. إن الإخلاص أو الحب ، أو أى عاطفة من هذا النوع لم تكن داخلة ضمن الشرط بأى حال !.. وإنى لأعلم أن « ساشا » لم تحبنى على الإطلاق !.. حقيقة هى لم تذكر لي شيئًا عن صاحبها الأسبانى منذ مجيئها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها نسيته !.. لقد كانت تقرأ ذات ليلة فى الفراش كعادتها قبل النوم ، وكنت أنا أكتب على مكتبى أو أطالع ؛ وإذا بى أسمع صوت عبرات مكتومة ، فرفعت عينى فوجدتها تحاول إخفاء بكائها ، فسألتها عما بها ، فكانت صريحة وقالت : إن يدها وقعت تلك الليلة على « دون كيشوت » وأقاصيص نموذجية من أعمال « سرفانتز » فغمرها فى ذكريات .. ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدها :

« لم أكن أعلم أنى أجد هنا كتبًا أسبانية »، فقلت لها :

SS
http://nj180degree.com

« عجبًا ، أوَ كنت تريدين أن أتجاهل الأدب الأسبانى ، وأستبعد مؤلفات « سرفانتز » ، ومسرحيات « كالدروز » ، وكوميديات « لوب دى فيجا » ؛ لأن لكِ خليلا أسبانيًا ؟ .. » أجل يا « أندريه » .. لم يكن بيننا حب قط .. ولا أذكر أننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة !.. هذا شيء لا يمكن أن يحدث مع امرأة موجودة .. موجودة أمامى فى كل وقت !.. إن اللحظة الوحيدة التى أحببتها فيها حقًا هى ساعة دخولها المشرب أول مرة مع صاحبها الأسبانى !.. إنها كانت رائعة ؛ لأنها كانت شيئًا فى السماء ، مثل كوكب يتلألأ ، لا يمكن أن تمتد إليه يدى ، ولكن هذا الكوكب ما لبث أن وقع فى كفى ، فإذا هو مصباح ضئيل ، يحتاج إلى يدى القاصرة لتملأه بالزيت ، وتحميه من التحطم والسقوط !.. إنى لم أزل أحب « إيما » لأنها شيء بعيد .. غير موجود فى كل وقت ، يصل إلىّ غناؤها من نافذتها ؛ كأنه شعاع يأتينى من بعيد !.. إنها أعطتنى بعض أسرار نفسها وجسمها .. ولكنها مع ذلك ليست فى يدى ؛ شأنها شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصى علينا .. إن الحب قصة لا يجب أن تنتهى ..

(مصر بين عهدين)

SS
http://nj180degree.com

قصة « إيما » مستمرة لا تريد أن تنتهى .. إن الحب مسألة رياضية لم تحل .. إن جوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لا بد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق ». إن حمى « الحب » عندى هى نوع من حمى « المعرفة » واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق .. ماذا يكون حال الوجود لو أن الله قـذف فى وجوهنا — نحن الآدميين — بتلك المعرفة أو ذلك المطلق يومئذ ؛ إنها ولا شك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئًا خاليًا من كل جمال وفكر وعاطفة ؛ فكل ما نسميه جمالا وفكرًا وشعورًا ، ليس إلا قبسات النور التى تخرج أثناء جهادنا وكدنـا وجرينـا خلـف المطلـق والمجهول !..

لو أن « إيما » قبلت أن تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى فى حجرتى لكان حظها حظ « ساشا » ، هنا الفرق بين « الغرام » و « الزوجية » !..

إنى أدرك الآن لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين إذا تزوجا ، وقد يعود إلى سابق اشتعاله إذا عادا خليلين ، لكل منهما حياته المنفصلة .. إن الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال .. لهذا كله

SS
http://nj180degree.com

كانت حياة « ساشا » معى أقرب إلى الحياة الزوجية الخالية من أى عاطفة قوية ، فما معنى خطابها هذا الذى كتبته اليوم ؟.. أتراها أنوثة المرأة ، تنسى كل شرط وكل اتفاق ، ولا تذكر إلا الرغبة فى أن تشغل قلب الرجل ؟.. وماذا أنا قائل لها ما دمت أوقن بأنها لا تحبنى !؟..

وطويت رسالتها وطرحتها جانبًا ، ومضيت فى عملى ومطالعاتى .. إلى أن عادت ومعها نسخة من صحيفة يومية ، وأخبرتنى مبتهجة بأنها وجدت لنفسها عملا ، فلقد قرأت إعلانًا فى الجريدة لأحد المسارح الراقصة ، يطلب فتيات لهن أجسام جميلة تصلح لرقص المجموعة .. فتقدمت فى الحال ، وكان نصيبها الفوز ، فما من شك أن جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل !.. على أن المسرح لن يعطيها بادئ الأمر أكثر من خمسمائة من الفرنكات فى الشهر ، وقالت لى وهى تخلع قبعتها ، وتنثر فى الهواء شعرها الأشقر :

« لا أعرف كيف أشكرك على معونتك لى ، ولكنى أرجو منذ الغد أن تكف عن منحى الفرنكات العشرة ، على أنى لم أزل بعد

SS
http://nj180degree.com

فى حاجة إلى مشاركتك حجرتك ، لأن ربحى — كما ترى — لا يسمح لى حتى الآن باقتناء مسكن خاص !.. »

فقلت لها :

« يا عزيزتى !.. الآن فهمت سر خطابك !.. أحسبت أنى أهرب منك استياء وتبرمًا وضيقًا بعبء العشرة الفرنكات ؟!.. فخرجت تبحثين عن عمل ؟.. على كل حال ، أنت حرة فى شئون حياتك ، وإنى دائمًا عند تعهدى بأن أكون فى معونتك وخدمتك على الوجه الذى تريدين !.. »

واستمرت حياتنا المشتركة تجرى فى مجرى هادئ ، فكلانا له شغل منفصل عن الآخر ، وحياة مخالفة لحياة الآخر .. لا يجمعنا إلا الليل فى فراش واحد ، و لم يخطر على بالى حتى مجرد التفكير فى نوع عملينا أو المقارنة بين حياتى وحياتها ، منذ ذلك اليوم .. فأنا طالب قانون وفلسفة وعلم وفن وأدب ، وهى راقصة فى مسرح راقص ، من طراز « الفولى برجير » أو « المولان روج ».. لست أذكر اسمه ، ولعلى لم اسألها عنه ، ولا بد أنها أخبرتنى باسمه وبخبره ، فلم أحفل بذلك ، و لم أع ما قالت ، و لم أنصرف بذهنى

SS
http://nj180degree.com

عما كنت أقرؤه وقتئذ أو أفكر فيه .. ولم أشعر أنا بتغيير فى نظامنا ، سوى انقطاعى عن منحها أى نقود !.. لقد حدث تغيير فى نظام حياتها هى ؛ تعود إلى الحجرة كل ليلة بعد التمثيل فى آخر قطار من قطارات المترو ، تعود « بالماكياج » مطلية من رأسها إلى قدميها بالأحمر والأبيض !.. فليس فى مسرحها ولا فى بيتنا حمام ، فتدس جسمها المطلى فى الفراش على هذه الصورة .. لقد انزعجت حقا أول الأمر ، يوم نهضت فى الصباح ، فأبصرت جسمى أنا الآخر قد نضح بتلك الألوان .. ولكن انزعاجى لم يقف عند هذا الحد ، إنها تعلمت التدخين بالطبع ، وأنا أكره رائحة الدخان فالويل لى عندما كنت آوى إلى فراشى ذات ليلة مبكرًا .. إنها كانت تعود إلىّ آخر الليل والسيجارة فى فمها « وتسير فى الحجرة على أطراف قدميها حتى لا توقظنى ، وتطرح معطفها الثقيل عن جسمها العارى — إلا من « مايوه » الرقص — وتذهب إلى المطبخ فتأتى بشطيرة خبز داخلها سردينة ؛ فهى جائعة ، وتجذب من بين كتبى قصة « لفلوبير » أو « بلزاك » أو تمثيلية « لبورتوريس » أو « لينورمان ».. فهى

SS
http://nj180degree.com

مقيمة على عادة القراءة قبل النوم .. وتضئ المصباح الكهربائى على رأس السرير ، ثم ترفع عنى الغطاء برفق وحذر .. وتدخل الفراش إلى جانبى ، بسردينها ودخانها وأحمرها وأبيضها ، وتحسب بعد ذلك كله أنها حرصت على عدم إيقاظى وإزعاجى .. لطالما نهضت لأنهرها وأطلب إليها أن تبطل هذا كله وتنام .. فكانت تستعطفنى وتستمهلنى حتى تتم قراءة القصة !..

وكنت أقول : « تتمين قراءة القصة ؟.. الليلة ؟!.. »

والواقع أنها كانت سريعة القراءة إلى حد كان يدهشنى ، إنها تتم قراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحدة ، وأنا الذى أقرؤها فى يومين أو ثلاثة ، ولكن هنالك فرقًا هائلا بين قراءتى وقراءتها .. إنها تقرأ للحكاية فى ذاتها .. أما أنا فلا تعنينى حكاية الكاتب ، بل يعنينى فنه ، وسر صناعته ، وطريقة أسلوبه فى البناء ، وخلق الأشخاص ، ونسج الجو ، وإحداث التأثير !.. إنى أعيد أحيانا قراءة الفصل الواحد ، بل الصفحة الواحدة مرات .. لكم أعدت قراءة « موليير » لا لشىء غير دراسة طريقته فى تقديم الأشخاص ورسم أخلاقهم !.. تلك الطريقة التى تختلف أحيانًا ، وتتغير فى

SS
http://nj180degree.com

كل رواية من رواياته .. لذلك لم تكن قراءة « ساشا » تصلح أساسًا حتى للمناقشة ومبادلة الرأى .. وما كنت أجنى منها إلا ذلك المصباح المسلط على رأسى ، والدخان يضيق به صدرى فى ذلك الهزيل الأخير من الليل .. إنها كانت أحيانًا تخشى غضبى فتقفز فى مطالعتها فصلا أو فصلين وتصل إلى خاتمة الكتاب سريعًا ، ثم تطفئ النور ، وتجذب الغطاء فوقها جذبة تتركنى أنا فى العراء ، فلا أتمالك نفسى ، وأقرصها قرصة تصرخ منها فى جوف الليل !.. ويأتى النهار ، فتستيقظ فى الضحى ، وأبقى أنا فى السرير كسلا .. وتسرع هى إلى ثياب الخروج ، فترتديها لتذهب إلى المسرح فى ميعاد التجارب « البروفات » ..

لبثنا معًا فى هذه الحياة ثلاثة أشهر ، لم يختل نظامها أو قل « فوضاها » قيد شعرة .. حتى تعودت احتمالها ، فندر غضبى أو ضجرى . وبدأت هى تهتم بما أعمل بعض الاهتمام ؛ فكانت تسألنى أن أطلعها على ما أكتب من حوار أو قصص .. فما كنت أقبل ذلك .. لست أدرى لماذا ؟.. أما هى فكانت تسألنى رأيى فى بعض الحركات الجديدة لرقصها ، فكنت أتبرم بذلك

SS
http://nj180degree.com

أيضًا ، فهذا ليس فى عرفى رقصًا فنيًا ، فالرقص الفنى عندى هو « بافلوفا » و « فوللر » و « إيزادورا دونكان » ورقص الجوقات والمجاميع فى « الأوبرات » الرفيعة ، أو فى « الباليه الروسى » ، أو حتى فى الرقصات الدينية التى نراها منقوشة فى الفن المصرى والهندى ، ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأسها وذراعيها فى الحجرة ، فلا أجد مفرًا من النظر !.. كنت أقول لها إن رقصها هو فى المجموعة جماله ليس فى ذاته ، بل فى التناسق العددى لكميات الأذرع والسيقان التى تتحرك فى وقت واحد ، وليته مع ذلك كان بالروح الفنى المعروف فى رقصات المعابد الهندية !.. ولقد ألحت علىّ إلحاحا شديدًا فى أن أذهب مرة لمشاهدتها على المسرح .. وأحضرت لى تذاكر مجانية ، فلم أجد من نفسى يومئذ حافزًا على الذهاب .. وليتنى ذهبت ..

وكاد ينتهى الشتاء ، فجاءتنى ذات يوم تقول إن المسرح سيوفد الفرقة الراقصة لتقوم برحلة فى « نيم » و « أورانج » و « أفنيون » فى جنوب فرنسا ، وقد تستغرق الرحلة شهرًا أو شهرين ، وجعلت تتجهز للرحيل ، وهى ترجونى وتزين لى أن

SS
http://nj180degree.com

أذهب معهم فى هذه الرحلة ، فضحكت للفكرة :

« أذهب فى رحلة الراقصات بأى صفة ؟.. وعلى أى وضع ؟.. أبصفتى صديق الراقصة ؟.. هذا جميل جدًا !.. ومن يدرى ، ربما عدت من الرحلة ، وقد عينت نهائيًا راقصًا بالفرقة ، أو شيئًا من هذا القبيل !!.. كلا يا عزيزتى « ساشا » !.. إنى لا أستطيع أن أترك باريس واللوفر والكتب والحى اللاتينى ومونمارتر وبلبور . اذهبى أنت وسيرى بمفردك ، فى طريق حياتك ، وإنى أتمنى لك التوفيق !.. »

وودع أحدنا الآخر وداعا حارًا ، وشعرت فى تلك اللحظة بشىء من السعادة ؛ لعودة حريتى الكاملة إلىّ .. ووحدتى المطلقة !..

* * *

SS

http://nj180degree.com

SS
http://nj180degree.com

قضية الشخصية المصرية

[عندما قمنا فيمَا يسمى « عصر التنوير » عندنا فى العشرينات والثلاثينات ، نناقش قضية « شخصية مصر » والسؤال : « ما مصر ؟ » .. « ما روح مصر ؟ ».. لم يكن ذلك لمجرد كتابة موضوع أو تأليف كتاب ، كما يحدث عادة ، ولكن كان ذلك إجابة عن سؤال وقضية أثيرت فعلا ..

فقد سأل الإنجليز الزعماء المصريين الذين طلبوا منهم استقلال مصر فقالوا لهم : « وما هى مصر ؟ هل هى أمة لها شخصية ؟ أم هى مجرد كيان تابع للدولة العثمانية ؟ وحضارة تابعة للحضارة العربية القديمة ؟..

فقمنا نجيب عن السؤال بالآتى :]

لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغيير !.. ولكن كيف تغيرت ؟.. هذا هو موضوع الكلام ، إن شئون

SS
http://nj180degree.com

الفكر فى « مصر » حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربى وتقليده !.. كنا فى شبه إغماء ، لا شعور لنا بالذات .. لا نرى أنفسنا ، ولكن نرى العرب الغابرين !.. لا نحس بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم هم !.. لم تكن كلمة « أنا » معروفة للعقل المصرى ، ولم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد !..

وجاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روح جديد ، وأمام عمل جديد ، لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم فى روحة وشكله ، وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما السلف وبدت الذاتية المصرية واضحة ، لا فى روح الكتابة وحدها ؛ بل فى الأسلوب واللغة أيضًا .. لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا !..

وأول مظاهر الوعى شخصية الأسلوب ، واستقلال طريقة التعبير ، وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة .. كل هذا أصبح اليوم جليًا معروفًا ، ولم أكتب هذه الصفحات من أجله ، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكرى أمر لا نزاع اليوم فيه ، ولقد مضى الكلام فى هذا ، إنما الأمر الذى يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر

SS
http://nj180degree.com

المصرى : معرفة أنفسنا حتى تتبين لجيلنا مهمته .. لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل ، وما فهمنا بعد جيدًا مميزات النفس والروح !..

ما هى مميزات العقلية المصرية فى الماضى والحاضر والمستقبل ؟.. ما روح مصر ؟.. ما مصر ؟.. إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحا خاصة ، تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة ، وأن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر ، حتى إذا ما تم تمييز الروحين — إحداهما من الأخرى — كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما ؛ وكان لنا أن نقول للناس : « ها نحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق إلى أنفسكم ، فسيروا » !..

لا بد لنا إذن أن نعرف مَن المصرى ومن الغربى ؟.. هذا السؤال ألقيته على نفسى منذ سنوات معدودة إذ كنت أطيل النظر فى الفنين المصرى والإغريقى !.. وأذكر أنى أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت سائلا : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين

SS
http://nj180degree.com

مستورة الأجساد ، وعند الإغريق عارية الأجساد ؟.. هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، كل شيء فى مصر مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الإغريق ! نعم كل شيء فى مصر خفى كالروح ، وكل شيء عند الإغريق جلى كالمنطق !.. فى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة والعقل !.. نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام .. إن المثال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هى شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة ، إنه يستنطق الحجر كلامًا وأفكارًا وعقائد !... على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى !.. يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال !.. يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شيء بكل شيء !.. يشعر بالكل فى الجزء وبالجزء فى الكل ، وتلك أولى علامات الوعى فى الخلق والبناء !..

هذا كله يحسه الفنان المصرى ؛ لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة ؛ لتحيط بقوانينها المستترة !.. فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن !... إنه يريد أن يصور روح الأشكال لا أجسامها ،

SS
http://nj180degree.com

وما روح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه .. إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض إلهى ، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون !..

كل شيء فى مصر إلهى ؛ لأن « مصر » التى منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش ، وكفتها مشقة الجهاد فى سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة .. حظها فى هذا حظ « الهند » : أمة كثيرة الخير دانية القطوف ، لا حاجة بها إلى الكفاح ، ولا عمل لها إلا استمراء ترف الحكمة العليا .. انقطعت هى أيضًا من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة .

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح ؛ لأنهما قد شبعتا من المادة ، والإغريق على النقيض : أمة لم تشبع من المادة .. أمة نشأت فى العسر والفاقة .. أرضها لا تدر من الخير إلا قليلا .. كان لزامًا عليها الكفاح فى سبيل العيش ، وكان حتما عليها الجرى وراء المادة .. حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن الإغريق ذلك الضمير المطمئن ، ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الإيمان

SS
http://nj180degree.com

بالأرض الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة !.. إن عاطفة الاستقرار والإيمان عند المصريين ممزوجة بالـدم ؛ لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق ، واختلاف العلماء فى أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفى كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا فى مصر قبل التاريخ المعروف . ولقد ظهرت الحضارة المصرية فى التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة ؛ كما يظهر قرص الشمس فى الأفق عند الشروق !.. ولقد قال « سولون » : إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التى ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ : « قارة الأتلانتيد ». أترى كانت الحضارة المصرية استمرارًا لتلك المدنية المندثرة ؟.. لم يقم دليل . على كل فرض ؛ « مصر » أمة مستقرة مؤمنـة ، زهدها عمرها الطويل ، وخيرها الكثير فى مباذل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجـه الفـن المصرى ، ولا شىء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها ؛ فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصرى الصرامة والجد

SS
http://nj180degree.com

والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتح كتابا فى الفن الإغريقى إلا وجدت كلمة « الحياة » وكلمة « الإنسانية » من نعوت هذا الفن !.. نعم الحياة هى كل شىء عند الإغريق قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح . فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة !.. فلسفة الحركة لا فلسفة السكون !.

عند « مصر » و « الهند » السكون ، عند « الإغريق » الحركة . قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « بول فاليرى » ، وهو المتصل اتصالا مباشرًا بالفلسفة اليونانية ، فإذا هو يشير فى قصيدة إلى الحركة والسكون ، وإذا الحركة عنده من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض « زينون » الأليانى فى إنكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيدة بانتصار الحركة ، أى الحياة على قصرها وفنائها ؛ فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة. ولم يفهم فى رأيى روح «مصر» و «الهند»!.. ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى، فإن دون هذا الإشراف

SS
http://nj180degree.com

والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى !..
هذه هى الصعوبة فى فهم « مصر » و « الهند » ، وهذا ما جعل الفن المصرى سرًا مغلقًا حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها ، فهى واضحة المعنى يسيرة المنال ؛ لأنها لزمت شاطئ الحياة ..

حظ « الإغريق » فى كل هذا حظ العرب أيضًا ؛ أمة نشأت فى فقر لم تعرفه أمة غيرها .. صحراء قفراء .. قليل من الماء يثير الحرب والدماء .. جهاد وكفاح لا ينقطعان فى سبيل العيش والحياة .. أمة لاقت الحرمان وجهًا لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا فى السِّير والأخبار ، كان حتما عليها ألا تحس المثل الأعلى فى غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجارى ، وألوان النعيم واللذائذ التى لا تنضب ولا تنتهى !.. أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع !.. كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة ، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافا ؛ لأن كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف !..

SS
http://nj180degree.com

عند الإغريق الحركة ، أى الحياة ، وعند العرب السرعة ، أى اللذة .. لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطابيها اختطافًا ركضًا على ظهور الجياد .. كل شيء قد يحسونة إلا عاطفة الاستقرار .. وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ؟.. دولة أنشأتها الظروف و لم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، حيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا « ميتولوجيا » ولا خيال واسعا ولا تفكير عميقا ، ولا إحساس بالبناء !.. لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء فى العمارة أو فى الأدب أو فى النقد.. الأسلوب العربى فى العمارة من أوهى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن، وإذا عاش لليوم فإنما يعيش بالزخرف.. فن الزخرف العربى هو الذى أنقذ العمارة العربية.. إن العمارة العربية — إلا فى «مصر» — ما هى فى رأيى سوى زخرف لا بناء؛ فلا أعمدة هائلة، ولا جبهة عريضة، ولا وقفة ولا بساطة عظيمة، ولا روعة عميقة، إنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهر البصر، ولا فكر خلفه!..

SS
http://nj180degree.com

أما فن الزخرف العربى فهو فى الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ .. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف .كل شيء عند العرب زخرف .. الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس . « فسيفساء » اللفظ والمعنى ، و « أرابسك » العبارات والجمل !.. كل مقامة للحريرى ؛ كأنها باب لجامع المؤيد : تقطيع هندسى بديع ، وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذًا بالبهرج الخلاب !.. كذلك الغناء العربى « أرابسك » صوتى ، فلا مجموعة أصوات منسقة البناء ؛ كما فى « الديتيرامب » أو « الأوركسترا » الإغريقية أو كما فى « الكورس » الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حرًا بسيطًا مستقيما !.. إنما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم ؛ كأنها « ستالاكتيبتات » غرناطية ، لا يكاد يسمعه « القاضى الفاضل » حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه ، كان هذا فى العهد الأولى للموسيقى ؛ إذا كانت عند

SS
http://nj180degree.com

جميع الشعوب بسيطة عارية ، تخرج من القلب تعبيرًا عما فى القلب ، أو رمزًا لفكرة من الأفكار !.. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرمز ؛ ولا طاقة لهم بالفن الرمزى ، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز إلا الصلة المباشر بالحس ؛ فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل . ولقد حاول « الفارابى » — فيما أذكر — التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية ، وكان لا بد له من الإخفاق. لأسباب قد أذكرها بعد !..

كذلك التصوير العربى على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ، ولم يؤد لغير تلك الغاية « المنياتور » الفارسى .. قد يكون للدين دخل فى تأخر النحت والتصوير عند العرب ، غير أنى اعتقد فى براءة الدين ، فإن العرب كانوا دائمًا ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ؛ لقد حرّم الدين الشراب فأحلوا هم الشراب فى قصور الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر فى أدب أمة بأحسن مما

SS
http://nj180degree.com

وصفت فى الأدب العربى !.. لاشىء فى الأرض ولا فى السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة ..

أما النحت أو التصوير الكبير فليس فى طبيعتهم ؛ لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها إحساسًا عميقًا بالتناسق العام ، مبناه التأمل الطويل ، والوعى الداخلى للكل فى الجزء ، وللجزء فى الكل ، وليس هذا عند العرب ؛ فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل ، وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد .. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق فى الأدب ؛ لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة .. قليل من الكتب العربية فى الأدب يقوم على موضوع واحد متصل ، إنما أكثر الكتب « كشاكيل » فى شتى الموضوعات ، تأخذ من كل شىء بطرف سريع: من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية ، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء ، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ، ولا « تراجيديا » واحدة ، ولا قصة واحدة . العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ؛ لأنها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة

SS
http://nj180degree.com

واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلئ طربًا وإعجابا ؛ — لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوى وإشباع لذات الحس ؛ حتى الحكمة وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة : إشباع لذة المنطق ، والمنطق جمال دنيوى .. لا أستغرب غضب « نيتشه » على « إيروبيد » لإسرافه فى هذا المنطق على حساب الموسيقى !..

من المستحيل إذن أن نرى فى الحضارة العربية كلها أى ميل لشئون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه « مصر » و « الهند » من كلمتى الروح والفكر !.. إن العرب أمة عجيبة ، تحقق حلمها فى هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم ، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم ويعود شقاء الصحراء ، وقد كان .. إن موضوع الحضارة العربية من « سانفونية » البشرية كموضوع الـ « سكيرتزو » من سانفونية « بيتهوفن » نغم سريع مفرح لذيذ !!..

لا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البناء !.. والعرب

SS
http://nj180degree.com

هى المادة،هى السرعة ، هى الظعن ، هى الزخرف ..

مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجها الدرهم وعنصرا الوجود .. أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح !.. إنى أومن بما أقول ، وأتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف .. تلك ينابيع فكر كامل ، ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير .. إن أكثر المدنيات يميل : إما إلى ناحية الروح ، وإما إلى ناحية المادة !..

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت فى وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة ، وهذا الاتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة « الإغريق » !.. نعم أعود فأرد إلى أمة « الإغريق » اعتبارها وأعترف أنى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثرًا بعض الشىء بكلام « تين » ، و « تين » عقل خلاب ، لكنه عقل والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحى للمدنيات .. ما هدانى إلى الحق إلا القلب .. إلا طول تأملى فى جبهة « الباريتينون » .. من دماغ ذلك الجواد الذى خلقته يد « فيدياس » ، فوق هذا المعبد

SS
http://nj180degree.com

خرجت أفكار توحى إلىّ بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشيء آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءتنى ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف ، وذكرت من فورى أن أصل الإغريق جنسان مختلفان : « اليونانيون » القادمون من آسيا ، المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد « يونا » ، و « الدوريون » الحربيون البرابرة الهابطون من الشمال ، وإله اليونانيين هو « ديونيزوس » وإله الدوريين هو « أبولون » .. وها هنا تفسير الإغريق : فى هذا الصراع بين « ديونيزوس » رمز الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة .. وبين « أبولون » رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى . « ديونيزوس » إله آسيوى فيما يخيل إلىّ ، جلب من « الهند » بلا مراء ، فغدا فى اليونان ينبوع الموسيقى ، لهذا السبب قدرت إخفاق « الفارابى » ، فإن الموسيقى العربية وليدة عقل واع ؛ لأن العرب أمة الفردية والوعى والمنطق العقلى والظاهر المحسوس !.. إن

SS
http://nj180degree.com

العرب من عباد « أبولون » وهم لا يشعرون ، إن العرب لا يمكن أن يفهموا « ديونيزوس » ، تلك النشوة الدينية الجارفة ، التى تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى ؛ كى تصله مباشرة بالطبيعة !.. إن أغانى عباد « باكوس » الحماسية فى الغابات ، ومزامير الـ « ساتير » ؛ لشىء بعيد إدراكه على العقلية الفردية ، شعور الإنسان فى لحظة أنه انقلب مخلوقًا له جسم جواد ورأس رجل ، أو رأس رجل وأرجل ماعز .. هذا الاتحاد بين الحيوان والإنسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء .. هذا التلاقى بين الأنواع و بين القوى فى مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات الإلهية البائدة التى كانت تحكم الأرض قبل ظهور الإنسان . مخلوقات لا هى من الإناث ولا هى من الذكور ، ولا هى من الحيوان ، ولا هى من الإنسان ؛ لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت كذلك « الإنسان الدانى من الحيوان ، القريب من الآلهة ، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عند الإغريق والهنود ؛ كما هى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوة الطبيعة

SS
http://nj180degree.com

الإلهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وببريق من ذلك النور الروحى والإلهام الذاتى يرى به كتلة الزمن ، من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لمحة واحدة !..

تلك القدرة الخفية هى حاسة بائدة كانت للإنسان الأول ، وفقدناها اليوم .. نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها و لم يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود والمنطق القاصر .. وها نحن أولاء اليوم فى هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة !.. أين ذهب « ديونيزس » ؟.. وهل يبعث من جديد ؟.. وإذا بعث فهل يجد من يعرفه فى هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية ؟!..

رجل واحد ما زال يذكر هذا الإله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف « غالياس »[1] أصحاب الكهف !!.. وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر ، هذا الغالياس العصرى هو : « تاجور » !.. إنه يتكلم كثيرًا عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة ؛ وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة

---

(١) أحد أبطال قصتى (أهل الكهف)

SS
http://nj180degree.com

وبين الحياة العظمى الذى يخترق الكون ، وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد ، هذا كلام جميل ، لكن هل تراه يشعر بحقيقته ؟.. يخيل إلىّ أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الإغريق ، بل لقد انقضت قبل أن تنقضى دولة الإغريق !.. انقضت بطغيان منطق « سقراط » على روح « هوميروس » ، انقضت بطرد « ديونيزوس » من « تراجيديات إيروبيد »، « غضبة « نيتشة » المعرفة .. » انقضت بغلبة الإحساس الفعلى على الإحساس الروحى .. انقضت بانتصار « أبولون » فى النهاية على « ديونيزوس » ..

وهكذا اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد ، ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطق ، وبقيت فى الظلام كنوز « ديونيزوس » الخفية !..

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب فى تطعيم الروح بالمادة ، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يومًا »...

(دمنهور) فى مايو ١٩٣٣ م من رسالة إلى (طه حسين) !..

* * *

(مصر بين عهدين)

SS
http://nj180degree.com

التعليم

بين « الماء والهواء » و « الطعام للفم والعقل »

بعد الرسائل المتبادلة فى « الشخصية المصرية » بينى وبين طه حسين مرت أعوام وظهر شعار ذلك الصديق عن « التعليم الذى كالماء والهواء ».. لم أتحمس كثيرًا لذلك الشعار ، إذ وجدته مفتقرًا إلى الدقة والعمق .. فالماء والهواء يشترك فيهما الحيوان مع الإنسان .. ولذلك فضلت عليه شعارًا آخر هو « الطعام لكل فم وعقل » لأنه يميز الإنسان عن الحيوان .. فالطعام للإنسان مختلف عن الطعام للحيوان .. ونوع الطعام يميز الشخصية عند الإنسان ..

وإذا كان المقصود بالتعليم الذى كالماء والهواء هو محو الأمية عند الجميع ، فما قيمة محو الأمية الأبجدية مع بقاء الأمية العقلية !؟.. محو الأمية العقلية يحتاج إلى طعام عقلى لا بد من اختياره

SS
http://nj180degree.com

بدقة وإعداده بعناية ..

لقد انتشر التعليم الذى كالماء والهواء بالمجانية ، و لم يتغير شيء كثير فى عقلية الأمة ، الذى كثر عدده هو مكاتب الموظفين الذين لا ينتجون شيئًا يرقى بعقلية الأمة !..

كما أصبح التعليم مجرد الحصول على شهادة للحصول على وظيفة ، لا شأن له بالتكوين الثقافى للعقلية والشخصية ..

وتذكرت « الكوليج دى فرانس » الذى كنت أقطن أمامه فى باريس ؛ كلية ممتازة بأساتذتها وعلماءها الكبار ، يلقون محاضراتهم لمن يرغبون من الحاضرين فى تنوير عقلهم وتكوين شخصيتهم . يدخلون بالمجان ، وبغير شروط .. ولا يؤدون أى امتحان .. فالهدف ليس النجاح فى امتحان ولا الحصول على شهادة ، ولا الانتظام فى دراسة .. إن هو إلا منارة للفكر والحضارة ، تشع الضوء ، بلا غرض سوى إبادة الظلام من العقول والنفوس ..

متى توجد عندنا هذه « الكليات المنارات » التى تشع النور على الجميع ، وتلقى طعام العقل بالمجان بغير امتحانات ولا مجاميع

SS
http://nj180degree.com

ولا شهادات ؟..

إن مصر الخالدة التى تكونت شخصيتها على مدى العصور والعهود ، من العهد الوثنى إلى العهد الإلهى بأديانه الثلاثة : الموسوية والمسيحية والإسلام ، قد رسبت فى قلبها ، كما ذكرت فى « عودة الروح » كل حضارة الإنسانية .. وعرفت فى عهد من عهودها ما شاهدته فى « الكوليج دى فرانس » من دخول أى شخص إلى الأزهر الشريف ، يستمع إلى عالم جليل يستند إلى عمود المسجد ويلقى علمه على الناس المجتمعين حوله ، ولا هدف لهم من شهادة أو وظيفة أو أى مطلب من مطالب الحياة المادية .. لا شىء إلا تلقى الضوء الذى ينير عقولهم وقلوبهم ..

لم يعد هذا موجودًا اليوم ، فالعلم والتعليم للحصول على الشهادات والدرجات .. أما التنوير الروحى والعقلى لتكوين الشخصية ، فلا تفكير فيه .. حتى الجامعة العصرية التى تدخل كل بيت واسمها « التليفزيون » إن هى إلا أداة إمتاع وترفيه ، أكثر مما تفهم على أنها أداة تنوير وتكوين ..

ويرحم الله الشخصية المصرية ، والأسرة العربية الكبيرة .. ؟

صفر ١٤٠٤ ديسمبر ١٩٨٣

SS
http://nj180degree.com

فهرست الكتاب

صفحة

روح مصر بين عهدين ١١

مصر بين عهدين فى رحلة على جناح عصفور ١٧

رحلة حول الحاضر ٥٩

رحلة حول الشخصية المصرية ١٠١

العوالم ١٥١

من رسائل زهرة العمر ١٧٥

قضية الشخصية المصرية ٢٠٧

التعليم بين الماء والهواء والطعام لكل فم وعقل ٢٢٥

رقم الإيداع : ٣٣٣٥ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى : ٤ — ٠٣٩٥ — ١١ — ٩٧٧

SS

http://nj180degree.com

SS
http://nj180degree.com

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٧٥ قرشا